

## الفصل السابع

### بيعتا العقبة

رد القبائل لمحمد رداً غير جميل - بشارت الفوز من ناحية يثرب - صلاة اليهود بالأوس والمخزرج - إسلام بعض اليربيين - وقعة بعاث - بيعة العقبة الصغرى - مصعب بن عمير - عودة مع الحاج إلى مكة بعد عام - المسلمون من يثرب - بيعة العقبة الكبرى - أنباؤها عند قريش - انتمار قريش بمحمد كي تقتله - إنن محمد لمسلمى مكة في الهجرة إلى يثرب.

#### تضعض المسلمين بعد الإسراء:

لم تدرك قريش معنى الإسراء، ولم يدرك كثير من أسلموا معناه الذى قلّمنا، لذلك انصرف جماعة من هؤلاء عن متابعة محمد بعد أن اتبعوه زمناً طويلاً. ولذلك ازدادت مساوات قريش لمحمد وللمسلمين حتى ضاقوا بها ذرعاً. ولم يبق لمحمد رجاء فى نصرة القبائل إياه بعد إذ رُدته تقيف من الطائف بشرّ جواب، وبعد إذ رُدته كِنْدَةَ وَكَلْبُ وبنو عامر وبنو حَنِيْفَةَ لما عرض نفسه عليهم فى موسم الحج. وشعر محمد بعد ذلك كله بأنه لم يبق له مطمع فى أن يهدى إلى الحق من قريش أحدًا. ورأت غير قريش. من القبائل التى تجاور مكة والتى تحبب من مختلف أنحاء بلاد العرب حاجة إليها، ما صار إليه من عزلة، وما أحاطته به قريش من عداوة تجعل كل نصير له عدواً لها ووعونا عليها، فازدادت إغراضاً عنه. ومع اعتزاز محمد بحمزة وعمر، ومع طمأنينته إلى أن قريشاً لن تنال منه أكثر مما نالت لمنعته بقومه من بنى هاشم وبنى عبد المطلب، لقد رأى رسالة ربه تقف فى دائرة من اتبعه إلى يومئذ ممن يوشكون لقتلهم ولضعفهم أن يبببوا أو أن يُقتلوا عن دينهم إذا لم يأتهم نصر الله والفتح. وتناولت الأيام بمحمد وهو يزداد بين قومه عزلة وقريش تزداد عليه حقداً. فهل ضعضت هذه العزلة من نفسه أو أوهنت له عزماً؟

#### ثبات محمد ﷺ:

كلا! بل زاده الإيمان بالحق الذى جاءه من ربه سمواً على هذه الاعتبارات التى تفتت فى عضد ذوى النفوس العادية، ولا تزيد أصحاب النفوس الممتازة إلا سمواً وإيماناً. وظل محمد، وأصحابه من حوله، أشد ما يكون فى عزلته ثقة بنصر الله له وإعلاء دينه على الدين كله. لم تُزعزع منه أعاصير الحقد، بل جعل يقيم بمكة طوال عامه لا يعنيه أن ذهب مال خديجة وماله، ولا يضعض من نفسه ضيق ذات يده، ولا يتطلع بروحه إلى شىء غير هذا النصر الذى لا ريب عنده فى أن الله

مؤتبه إياه. فإذا جاء موسم الحج واجتمع الناس من أنحاء شبه الجزيرة بمكة، بدأ القبائل فداها إلى الحق الذي جاء به، غير أنه أن تبدي هذه القبائل الرغبة عن دعوته والإعراض عنه، أو ترده رداً غير جميل. ويتحرش به بعض سفهاء قريش حين إبلاغه الناس رسالة ربه وينالونه بالسوء، فلا تغير مساءاتهم رضا نفسه وطمأنيتها إلى غده. إن اقه ذا الجلال قد بعثه بالحق، فهو لا ريب ناصر هذا الحق ومؤيده. وهو قد أوحى إليه أن يجادل الناس بالتي هي أحسن، ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>، وأن يقول لهم قولاً ليناً لعلهم يذكرون أو يخشون. فليصبر على أذاهم، إن اقه مع الصابرين.

تباشير الفوز من يثرب:

ولم يطل بمحمد ﷺ - الانتظار أكثر من بضع سنين حتى بدت له في الأفق تباشير الفوز آتية طلائعها من ناحية يثرب. ولمحمد يثرب علاقة غير علاقة التجارة؛ له بها علاقة قري، وله فيها قبر كانت أمه تحج إليه قبل موتها في كل عام مرة. أما ذوو قرياه فأولئك بنو التجار أخوال جده عبد المطلب. وأما ذلك القبر فقبر أبيه عبد اقه بن عبد المطلب. إلى هذا القبر كانت تحج آمنة الزوج الوفية، وكان يحج عبد المطلب الأب الذي فقد ابته وهو في شرخ شبابه وربعان قوته. وقد صحب محمد أمه إلى يثرب في السادسة من عمره، فزار معها قبر أبيه ثم قفلاً عائدين، فمرضت آمنة في الطريق وماتت ودفنت بالأبواء في منتصف الطريق بين يثرب ومكة. فلا عجب أن تبدأ تباشير الفوز لمحمد من ناحية بلد له به هذه الصلة وإلى ناحيته كان يتجه حين يصل جاعلاً قبلته المسجد الأقصى ببيت المقدس، مقام سلفيه موسى وعيسى، ولا عجب أن تسمى المقادير ليثرب هذا الحظ ليلم لمحمد بها النصر، وللإسلام بها الفوز والانتشار.

الأوس والخزرج واليهود:

هيات المقادير ليثرب هذا الحظ بما لم تهينه لبلد آخر. فقد كان الأوس والخزرج من عباد الأوثان يثرب يجاورون يهودها جواراً كثيراً ما شابهته البغضاء وما تعدى البغضاء إلى القتال. وإن التاريخ ليروي أن المسيحيين في الشام، ممن كانوا يتبعون الدولة الرومانية الشرقية، وكان يفتون اليهود أشد المقت لا اعتقادهم أنهم هم الذين صلبوا المسيح ونكلوا به، قد أغاروا على يثرب ليقتلوا يهودها. فلما لم يظفروا بهم استعانوا بالأوس والخزرج على استدراجهم، ثم قتلوا عدداً منهم غير قليل. وأنزل ذلك اليهود عن مكان السيادة الذي كان لهم، ورفع عرب الأوس والخزرج إلى مكانة غير مكانة العمال التي كانوا مقصورين من قبل عليها. وقد حاول العرب بعد ذلك أن يوقعوا باليهود مرة أخرى ليزدادوا في المدينة العامرة بالزراعة والماء سلطناً، فنجحوا في كيدهم بعض النجاح، ثم فطن

اليهود لوقعتهم بهم. بذلك تمكنت العداوة والبغضاء في نفوس يهود يثرب لأوسها وخزرجها، وفي نفوس الأوس والخزرج لليهود. ورأى أتباع موسى أن مقابلة القتال بالقتال قد تهوى بهم إلى الفناء إذا وجد الأوس والخزرج حلفاء من بني دينهم العرب على أهل الكتاب هؤلاء، فسلكوا في سياستهم خطة غير خطة الغلب في المعارك. لجئوا إلى سياسة الرقعة والتفريق، بأن دسوا بين الأوس والخزرج وأغروا بينهم بالعداوة والبغضاء حتى جعلوا كل فريق على أهبة مستمرة للقتل والقتال. بذلك أمن اليهود عدواتهم، وجعلوا يزيدون في تجارتهم وفي ثروتهم ويستعيدون ما فقدوا من سيادة، ويستردون ما أضاعوا من دار ومن عقار.

### الأثر الروحي لجوار اليهود:

كان لجوار اليهود والعرب يثرب، فيما خلا هذا النزاع على السيادة والسلطان أثر آخر أعمق عند الأوس والخزرج مما كان عند سائر أهل جزيرة العرب؛ ذلك هو الأثر الروحي. فقد كان اليهود، وهم أهل كتاب ودعاة وحدانية، يعيبون على جيرانهم الوثنيين اتخاذهم الأوثان زُلقى إلى الله، ويُندرونهم بعث نبي يقضى عليهم ويشاع اليهود. ولم تصل هذه الدعوة إلى تهويد العرب لسببين: أحدهما أن ما كان بين النصرانية واليهودية من حرب جعل يهود يثرب لا يطمعون في أكثر من السلامة التي تهيئ لهم سعة التجارة. والآخر أن اليهود يحسبون أنفسهم شعب الله المختار، ولا يرضون أن تكون لشعب غيرهم هذه المكانة، وهم لذلك لا يدعون لدينهم ولا يرضونه يخرج من بني إسرائيل. وعلى الرغم من قيام هذين السببين هياً اتصال الجوار والتجارة، بين اليهود والعرب أوس يثرب وخزرجها ليكونوا أكثر استماعاً للحديث في الشؤون الروحية وفي سائر شئون الدين من غيرهم من العرب. يدل ذلك على ذلك أن العرب لم تستجب لدعوة محمد الروحية مثلما استجاب أهل يثرب.

### سويد بن الصامت:

كان سويد بن الصامت من كبار أشرف يثرب، حتى كان قومه يسمونه الكامل، لجلده وشعره وشرفه ونسبه. وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها قديم سويد مكة حاجاً، فتصدى له محمد فدعاه إلى الله وإلى الإسلام. فقال له سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي! قال محمد: وما الذي معك؟ قال: حكمة لقمان. فطلب إليه محمد أن يعرضها عليه فعرضها؛ فقال له محمد: إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل؛ هو قرآن أنزله الله على هدى وتوراً. وتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام. فطاب سويد نفساً بما سمع وقال: هذا حسن. وانصرف يفكر فيه. وإن قوماً ليقولون حين قتلته الخزرج: إنه مات مسلماً.

إياس بن معاذ:

وليس سُويد بن الصامت هو المثل الوحيد الذى يدل على أثر تجاور اليهود والعرب بيثرب من الناحية الروحية. فقد كان بين الأوس والخزرج من العداوة التى بثَّ اليهودُ ما علمت، وكان كل منهم يلتصم الحلف من قبائل العرب ليقاتل الآخر. وكان من ذلك أن قديم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن مُعاذ يلتصمون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج. وسمع بهم محمد، فأتاهم فجلس إليهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ، وكان غلاماً حَدَّثًا: أى قوم! هذا والله خير مما جنتم فيه. وعاد القوم إلى يثرب لم يُسلم منهم غير إياس، لأنهم كانوا فى شغل بالتماس الحلف استعداداً لوقعة بُعَاث التى اصطلح الأوس والخزرج جميعاً بنارها بعد قليل من عود أبى الحيسر ومن معه إلى مكة. لكن كلام محمد ﷺ ترك فى نفوسهم بعد هذه الواقعة من الأثر ما دعا الأوس والخزرج جميعاً ليلتمسوا فى محمد نبياً ورسولاً وحليفاً وإماماً.

وقعة بعث:

كانت وقعة بُعَاث بعد قليل من عود أبى الحيسر ومن معه إلى يثرب، واقتتل فيها الأوس والخزرج قتالا شديداً أملتته عداوة متأصلة، حتى لكان كل قوم يتساءلون إذا هم انتصروا: أيقون على أصحابهم، أم يستأصلونهم ويجهزون عليهم. وكان أبو أسيد حُضيرُ الكتاب على رأس الأوس، وكان فى نفسه من المقد على الخزرج أشده. فلما بدأ القتال دارت على الأوس الدائرة، فوَلَّوْا فراراً نحو نجد، فغيرتهم الخزرج. فلما سمع حُضيرُ تعبيرهم طعن بسنان رجمه فحذه ونزل وصاح: وَاعْتَرَاهُ! والله لا أريم حتى أقتل! فإن شتمت يا معشر الأوس أن تُسلمونى فافعلوا. فعاد الأوس للقتال وبهم من الألم مما أصابهم ما جعلهم يستبسلون مستبسين، فيهزمون الخزرج شرَّ هزيمة. وجعلت الأوس تحرق على الخزرج نخلها ودورها، حتى أجارها سعدُ بن مُعاذ الأشهلَى. وأراد حُضير أن يأتى الخزرج قصرًا قصرًا، ودارًا دارًا، يقتل ويهدم لا يُبقى منهم أحدًا، لولا أن منعه أبو قيس بن الأُسَلْت إبقاءً على بنى دينهم؛ «فجوارهم خير من جوار الثعالب».

بدء الإسلام بيثرب:

واستعادت اليهود بعد هذا اليوم مكانتها بيثرب. ورأى المنتصر والمهزوم من الأوس والخزرج جميعاً سوء ما صنعوا، وفكروا فى عاقبة أمرهم، وتطلعوا إلى إقامة ملك عليهم. واختاروا لذلك عبد الله بن محمد من الخزرج المهزومة لمكانته وحسن رأيه. لكن تطوُّر الأحوال تطوُّراً سريعاً حال دون ما أرادوا. ذلك أن نفرًا من الخزرج خرجوا إلى مكة فى موسم الحج، فلقيهم محمد فسألهم عن شأنهم وعرف أنهم من موالى يهود. وقد كان اليهود بيثرب يقولون لهم إذا اختلفوا وإياهم: إن نبياً

مبعوثاً الآن قد أطل زمانه، تتبعه فتقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم النبي أولئك النفر ودعاهم إلى الله، نظر بعضهم إلى بعض وقالوا: والله إنه للنبي الذي تواعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه. وأجابوا محمداً - إلى دعوته وأسلموا، وقالوا له: «إننا قد تركنا قومنا - أي الأوس والخزرج - ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فحسى أن يجمعهم الله بك. وإن يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك». وعاد هؤلاء النفر إلى المدينة، ومن بينهم اثنان من بني النجار أخوال عبد المطلب جد محمد الذي كفله منذ مولده، فذكروا لقومهم إسلامهم، فألقوا قلوباً منشحة ونفوساً متلهفة لدين يجعلهم موحدين كاليهود بل يجعلهم خيراً منهم، فلم تبق دار من دور الأوس والخزرج جميعاً إلا فيها ذكر محمد عليه السلام.

### العقبة الأولى - مصعب بن عمير:

فلما استدار العام وعادت الأشهر الحرم وجاء موعد الحج لمكة، أتى الموسم اثنا عشر رجلاً من أهل يثرب فالتقوا هم والنبي بالعقبة، فبايعوه بيعة العقبة الأولى. بايعوه على ألا يشرك أحدهم باقة شيئاً، ولا يسرق ولا يزني، ولا يقتل أولاده ولا يأتي بيهتان يفتريه بين يديه ولا رجله ولا يعصيه في معروف، فإن وفى ذلك فله الجنة، وإن غشي من ذلك شيئاً فأمره إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر. وأنفذ محمد معهم مصعب بن عمير يقرنهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين. ازداد الإسلام بعد هذه البيعة يثرب انتشاراً. وأقام مصعب بين المسلمين من الأوس والخزرج يعلمهم دينهم، ويرى مقتبلاً ازدياد الأنصار لأمر الله ولكلمة الحق. فلما أذنت الأشهر الحرم أن تعود لحق بمكة وقص على محمد خبر المسلمين بالمدينة، وما هم عليه من منعة وقوة، وأنهم سيجيئون إلى مكة موسم حج هذا العام الجديد أكثر عدداً وأعظم باقة إيماناً.

### تفكير محمد ﷺ في الهجرة:

دعت أخبار مصعب محمداً أن يفكر في الأمر طويلاً. ها هم أولاء أتباعه يثرب يزداحون كل يوم عدداً وسلطاناً، ولا يجدون من أذى اليهود ولا من أذى المشركين ما يجد زملاؤهم بمكة من أذى قريش. وها هي ذى يثرب بها من الرخاء أكثر مما بمكة، بها زرع ونخيل وأعناب. أوليس من الخير أن يهاجر المسلمون المكيون إلى إخوانهم هناك ليجدوا عندهم أمناً، وليسلموا من فتنة قريش إياهم عن دينهم! وذَكَرَ محمد أثناء تفكيره أولئك النفر من يثرب الذين كانوا أول من أسلم، والذين ذكروا ما بين الأوس والخزرج من عداوة، أنهم إذا جمعهم الله به فلا رجل أعز منه. أوليس من الخير، وقد جمعهم الله به، أن يهاجر هو أيضاً! إنه لا يجب أن يرد على قريش مساءتها وهو يعلم أنه أضعف منها، وأن بنى هاشم وبني المطلب إن منعه من الاعتداء عليه فلن ينصروه معتدياً، ولن يمنوا الذين أتبعوه من اعتداء قريش عليهم ومن إصابتها إياهم بأنواع المساءة. وإذا كان الإيمان أقوى سند يجعلنا نستعين بكل شيء ونضحى عن طيب خاطر في سبيله بالمال والراحة والحرية والحياة.

وإذا كان الأذى من طبعه أن يزيد الإيمان استعماراً، فإن في استمرار الأذى والتضحية ما يشغل المؤمن عن دقة التأمل التي تزيد في أفق المؤمن سعة، وفي إدراكه للحق قوة وعمقاً. وقد أمر محمد الذين أتبعوه من قبل أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية أن كانت بلاد صدق، وكان بها ملك لا يُظلم عنده أحد؛ فأولى بالمسلمين أن يهاجروا إلى يثرب وأن يتقوا بأصحابهم المسلمين فيها، وأن يتأزروا بذلك على دفع ما يمكن أن يصيبهم من شر؛ ليكون لهم بذلك من الحرية في تأمل دينهم والجهار به ما يكفل إعلاء كلمته، كما يكفل نجاح الدعوة إليه؛ دعوة لا تعرف الإكراه، بل أساسها الرفق والإقناع والمجادلة بالتي هي أحسن.

### بيعة العقبة الثانية أو الكبرى:

وكان الحاج من يثرب في هذه السنة - سنة ٦٢٢ ميلادية - كثيرين بالفعل وكان من بينهم خمسة وسبعون مسلماً، منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان. فلما عرف محمد مقدمهم، فكر في بيعة ثانية لا تقف عند الدعوة إلى الإسلام على نحو ما ظل هو يدعو إليه ثلاث عشرة سنة متتابة في رفق وهوادة مع احتمال صنوف التضحية والألم جميعاً، بل تمتد إلى ما وراء ذلك، وتكون جلفاً يدفع به هؤلاء المسلمون عن أنفسهم الأذى والأذى بالعدوان بالعدوان. واتصل محمد سرّاً بزعمائهم وعرف حسن استعدادهم، فواعدهم أن يلتقوا معه عند العقبة جوف الليل في أوسط أيام التشريق. وكتب مسلمو يثرب من معهم من المشركين أمرهم، وانتظروا حتى إذا مضى ثلث الليل من يوم موعدهم مع النبي خرجوا من رحاهم يتسللون تسلل القطا مستخفين حنراً أن ينكشف سرهم. فلما كانوا عند العقبة تسلقوا الشعب جميعاً وتسلقت المرأتان معهم، وأقاموا ينتظرون مقدم صاحب الرسالة. وأقبل محمد ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان ما يزال على دين قومه، لكنه عرف من قبل من ابن أخيه أن في الأمر جلفاً، وأن الأمر قد يجر إلى حرب، وذكر أنه قد تعاهد مع من تعاهد من بني المطلب وبني هاشم أن يمتنعوا محمداً، فليستوثق لابن أخيه ولقومه حتى لا تكون كارثة يصلى بنو هاشم وبنو المطلب نارها، ثم لا يجدون من هؤلاء اليثريين نصيراً. لذلك كان العباس أول من تكلم فقال: يا معشر الخزرج! إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده. وقد أبي إلا الانحياز إليكم والحق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيها دعوتوه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه.

قال اليثريون - وقد سمعوا كلام العباس:

- سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فأجاب محمد ﷺ بعد أن تلا القرآن ورغب في الإسلام:

- أبايعكم على أن تمتنعوني مما تمتنعون منه نساءكم وأبناءكم.

وكان البراء بن معرور سيد قومه وكبيرهم، وكان قد أسلم بعد العقبة الأولى وقام بكل ما يفرض الإسلام، إلا أنه جعل قبلة صلاته الكعبة، وكان محمد والمسلمون جميعاً يومئذ ماتزال قبلتهم المسجد الأقصى. ولما اختلف هو وقومه واحتكموا إلى النبي أول وصولهم إلى مكة، رد محمد البراء عن اتخاذ الكعبة قبلة. فلما طلب محمد إلى مسلمي يثرب أن يمتنعوا مما يمتنعون منه نساءهم وأبناءهم، مد البراء يده على ذلك وقال:

- يا بعنا يا رسول الله! فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر.

وقبل أن يتم البراء كلامه اعترض أبو الهيثم بن التيهان قائلاً:

- يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال - أي اليهود - حبلاً<sup>(١)</sup>، نحن قاطعوها فهل عسيّت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟! فتبسم وقال:

- بل الدم الدم والهدم الهدم<sup>(٢)</sup> أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم، وهم القوم بالبيعة، فاعترضهم العباس بن عبادة قائلاً:

- يا معشر الخزرج! أنعلمون علّامٌ تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبةً وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن فدعوه؛ فهو والله إن فعلتم جزئ الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه؛ فهو والله خير الدنيا والآخرة.

فأجاب القوم: إنا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ ورد عليهم محمد مطمئن النفس قائلاً: الجنة.

مدوا إليه أيديهم، فبسط يده فبايعوه فلما فرغوا من البيعة قال لهم النبي أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم كُفلاء. فاختر القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. فقال النبي لهؤلاء النقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كُفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي. وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا: يا بعنا على السمع والطاعة في عُسْرنا وُسْرنا ومَنْشَطْنا ومَكْرَهْنا، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم.

البيعة:

تم ذلك كله جَوْف الليل في شعب العقبة في عزلة من الناس والقوم على ثقة من أنه لا يطلع

(١) الحبال: اليهود.

(٢) الهدم (بالسكون وبالتحريك): إهدار دم القتل. يريد إن طلب دمكم فقد طلب دمي وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي، لاستحكام الألفة بيننا. وهو قول معروف للعرب يقولون: دمي دمك وهدمي هدمك؛ وذلك عند المعاهدة والصرة.

عليهم إلا الله - لكنهم ما كادوا يُتمونه حتى سمعوا صوتاً يصيح بقريش: إن محمداً والصَّباة<sup>(١)</sup> معه قد اجتمعوا على حربكم ذلك رجل خرج لبعض شأنه، فعرف من أمر القوم قليلاً اتصل بسمعه، فأراد أن يُفسد عليهم تدبيرهم، وأن يُدخل في روعهم أن ما يبتوا بليل افتضح، لكن الخزرج والأوس كانوا عند عهدهم، حتى لقد قال العباس بن عُباداً لمحمد بعد أن سمع هذا المتجسس: «واقه الذي بعثك بالحق إن شئت لتُجيبن على أهل مِثي غداً بأسيا فانا!» فكان جواب محمد أن قال: «لم تُؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رجالكم». فرجعوا إلى مضاجعهم وناموا حتى أيقظهم الصبح.

### قريش وبهيمة العقبة:

على أن الصبح ما كاد يتنفس حتى علمت قريش بنها هذه البيعة فانزعجت. وغدت جلستها على الخزرج في منازلهم يُعاتبونهم ويقولون لهم: إنهم لا يريدون حربهم، فما بالهم يحالفون محمداً ﷺ على قتالهم! وانبعث المشركون من الخزرج يحلفون بالله ما كان من هذا شيء. أما المسلمون فاعتصموا بالصمت حين رأوا قريشاً مالت لتصديق شركائها في الدين، وعادت قريش لا تؤكد الخبر ولا تنفيه، وأخذت تتنطسُ عليها تقف على جليلة الأمر فيه. واحتمل أهل يثرب رحالهم وعادوا قاصدين بلدهم قبل أن تتق قريش بشيء مما حصل. فلما عرفت أن الخبر حق، وخرجت تطلب أهل يثرب، فلم تلحق منهم إلا بسعد بن عباد، فأخذوه وردّوه إلى مكة وعذّبوه حتى أجاره جُبَيْر بن مُطعِم بن عَدِيّ والحارث بن أُمَيّة؛ لأنه كان يبيّر لها من يخرجون في تجارتها إلى الشام حين مرورهم بيثرب.

لم تُبالغ قريش قط في فزعها ولا في تتبعها الذين بايعوا محمداً ﷺ على قتالها؛ فقد عرفته ثلاث عشرة سنة متتابعة منذ بدء نبوته، ووقفت من الجهود للحرب السلبية التي أعلنت عليه ما جهّدها وجهّده، ونال منها ونال منه. عرفت ذلك القوى بالله المستمسك برسالة الحق لا يلين فيها ولا يُداجي، ولا يخاف فيها أذى ولا مساءة ولا قتلا. وقد خيل إلى قريش بعد أن أرهقته ومن معه بألوان الأذى، وبعد أن حاصرته في الشعب؛ وبعد أن أدخلت على أنفس أهل مكة جميعاً من الرُوع ما صدّهم عن اتباعه، أنها توشك أن تظفر به، وأن تحصر نشاطه في الدائرة الضيقة من الأتباع الذين ظلوا على دينه، وأنه ومن معه لا يلبثون إلا قليلاً حتى تُضنيهم العزلة فيعودوا إلى حكمها طائعين. أمّا اليوم وإزاء هذا الحلف الجديد، فقد انفتح أمام محمد والذين معه باب الرجاء في الغلب، أو على الأقل باب الرجاء في حرية الدعوة إلى عقيدتهم، والظعن على الأصنام وعُبادها.

### دقة موقف الجانبين:

ومن يدري ما يكون أمر القوم من بعد ذلك في شبه جزيرة العرب كلها وقد نصرتهم يثرب

(١) جمع صابو وهو الخارج على دين قومه وجماعته.

بأوسها وخَزَرَجها، وقد جعلتهم بأمن من العدوان، وفسحت لهم حرية القيام بفرائض دينهم ودعوة غيرهم إلى الانضمام إليهم، فإذا لم تقض قريش على هذه الحركة في مهدها فالخوف من المستقبل لن يزال يساورها وفوز محمد عليها لن يزال يَقْضُ مَضْجَعها.

لذلك أمنت تفكر فيها تفعل لتحيط ما قام به محمد، ولتقضى على هذه الحركة الجديدة. ولم يكن هو من ناحيته أقل من قريش تفكيراً؛ إن هذا الباب الذي فتح الله أمامه هو باب العزة لدين الله، والسمو لكلمة الحق. فالمعركة الناشئة اليوم بينه وبين قريش هي أشد ما وقع منذ بعثه، وهي معركة حياة أو موت بالنسبة له ولها، والغلب لا ريب للصادقين. فلُجِّع أمره، وليستعن بالله وليكن لما تكيد قريش أشد ازدراء مما كان في كل ما سلف، ولْيُقَدِّمَ ولكن في حكمة وأناة ودقة؛ فالوقف موقف حنكة السياسي والقائد الدقيق المداورة.

### هجرة المسلمين إلى يثرب:

وأمر أصحابه أن يلحقوا الأنصار بيثرب، على أن يتركوا مكة متفرقين حتى لا يثيروا نائرة قريش عليهم. وبدأ المسلمون مهاجرون فرادى أو نفراً قليلاً. لكن قريشاً فطنت للأمر، فحاولت أن ترد كل من استطاعت رده إلى مكة لتفتنه عن دينه أو لتعذبه وتتكلم به. وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجته إذا كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير معه، وأنها كانت تجس من تستطيع حبسه ممن لم يُطْعَمها. لكنها لم تكن تقدر على أكثر من ذلك، حتى لا تكون حرب أهلية بين مختلف قبائلها إذا هي همت بقتل واحد من أهل هذه القبائل. وتتابعت هجرة المسلمين إلى يثرب ومحمد ﷺ مقيم حيث هو، لا يعرف أحد هل اعتمز الإقامة أم قرّر الهجرة. وما كانوا ليعرفوا وقد أذن لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة من قبل وظل هو بمكة يدعو سائر أهلها إلى الإسلام. وبلغ من ذلك أن أبا بكر استأذنه في الهجرة إلى يثرب، فقال له: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً، ولم يزد على ذلك.

### قريش وهجرة النبي ﷺ:

على أن قريشاً كانت تحسب هجرة النبي ﷺ إلى يثرب ألف حساب. لقد كثر المسلمون فيها كثرة جعلتهم يكادون يكونون أصحاب اليد العليا. وها هم أولاء المهاجرين من مكة ينضمون إليهم فيزيدونهم قوة. فإذا لحق محمد ﷺ بهم، وهو على ما يعرفون من ثبات وحسن رأى وبُعد نظر، خشوا على أنفسهم أن يدهم الليثيون مكة أو يقطعوا عليها طريق تجارتها إلى الشام، وأن يجيعوها كما حاولوا هم أن يجيعوا محمداً ﷺ وأصحابه حين وضوا الصحيفة بمقاطعتهم وأكروههم على أن يلزموا الشعب وأن يقضوا فيه ثلاثين شهراً.

وإذا بقي محمد ﷺ بمكة وحاول الخروج منها، فهم معرضون لمثل هذا الأذى من جانب الليثيين

دفاعاً عن نبيهم ورسولهم. فلم يبق إلا أن يقتلوه ليستريحوا من كل هذا الهم الواصب<sup>(١)</sup>. لكنهم إن قتلوه طالب بنو هاشم وبنو المطلب بدمه وأوشكت الحرب الأهلية أن تفشو في مكة فتكون شرّاً عليها مما يخشونه من ناحية يثرب. واجتمع القوم بدار الندوة يفكرون في هذا كله وفي وسيلة اتقائه. قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيراً والتابغة ومن مضى منهم، حتى يصيبه ما أصابهم. لكن هذا الرأي لم يلق سميماً. وقال قائل: نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا ثم لا نُبالى بعد ذلك من أمره شيئاً. لكنهم خافوا أن يلحق بالمدينة وأن يصيبهم ما يفرقون منه. وانتهوا إلى أن يأخذوا من كل قبيلة فتي شاباً جليداً، وأن يُعطوا كل فتي سيفاً صارماً بتاراً فيضربوه جميعاً ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه بين القبائل، ولا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعاً، فيرضوا فيه بالدية، وتستريح قريش من هذا الذي بدد شملها وفرق قبائلها شيئاً. وأعجبهم هذا الرأي فاطمأنوا إليه، واختاروا فتيانهم وباتوا يحسبون أن أمر محمد ﷺ قد فرغ منه، وأنه بعد أيام سوارى وتواري دعوته في التراب، وسيعود الذين هاجروا إلى يثرب إلى قومهم وإلى دينهم وآلهتهم، وتعود بذلك لقريش وبلاد العرب وحدتها التي تمزقت، ومكانتها التي تضعفت أو كادت.

(١) الواصب: الدائم الثابت أو الموجه.